اللغة العربية بين العلم والأدب

الدكتور
محيي الدين رمضان
كلية الآداب - جامعة تشرين

طالما أثارت وتثير بحوث ومقالات عن اللغة العربيـــة هنا وهناك موضوعات من حيث صلاحيتها للحياة بكل جوانبها ولا سيما في استعمالها لغة للعلم ، وهل يمكن ان تؤدي عنه وتكفيه حاجته منها ؟ تلك هي فكرة هذا البحث العامة

إن الطعن على اللغة العربية وآدابها ظاهرة ليست بالجديدة . فقد بدأت بقيام الاستشراق الموجّه في العصر الحديث وبما وُسّد إليه من المهام الجسام في مجال الفكر والسياســة .

وكان لبعض المستشرقين ، لما عُوّل عليهم ، خطط وأساليب في طعنهم خفيت على أكثر المتبصرين يومئذ ، وما زالت تخفى ، حتى خلفهم في مهمتهم هذه نفر من أبناء اللغة العربية ، وكان ذلك مما قصد إليه هؤلاء المستشرقون ونفذوا به بعض ما أُوكل إليهم .

فقام هؤلاء بين مقلّد إمّعة ، يدعو إلى ما دعا إليه أئمته . فمضى على أثرهم ، لا يلوي على شيء ، كأنه ظلّهم وصدى صوتهم ، ومأخوذ بالجديد ، يبهره زخرفه ، ويستخفه طريفه . فلم يقصر في تزيينه للملأ من أمته ، وحثهم على استمرائه ، وراغب في

الخير لأمته ، متحرق لأن يراها تستيقظ ، فتفيد من الطريف بما يوافق التليد ، ويبحث عن ضالته من الخير ، ولو عند عدوه المتربص من غير ان يثنيه شيء عن إدراك الحق ، ولا يعيبه الطلب لدى من ظلمه وأهانه .

وكانت دعوة أولئك وهؤلاء ما بين تيسير النحو ، وإصلاح الإملاء والكتابة ، واستبدال الفصحى بالعاميات وحروف الهجاء العربية بحروف الهجاء اللاتينية ، والنعي على معاني الشعر وغثاثة الأدب والنيل من أساليب الأدباء والتندّر بهم .

وهذا كله انتهى إلى صفحة من تاريخ لغة هذه الأمة وآدابها أواخر القرن الماضي حتى منتصف هذا القرن .

ولكن ما هذا الطعن على اللغة والتندر بها ، والنيل منها ومن علومها وآدابها اليوم ؟ وما سبب انتقاص المنتقصين منها ؟ ومَن المنتقصون الطاعنون المتندرون هؤلاء ؟ وما دعاهم إلى هذا كله ؟ وما مآخذهم التي يأخذونها على اللغة وآدابها ؟ وما صلتهم بأولئك وهؤلاء من الذين تقدم ذكرهم ؟ وهل يدعون إلى إزالة شيء وإقامة شيء آخر مكانه ؟ وما الأشياء التي ينتقدونها أو يذكرونها ويرغبون في إصلاحها أو استبدالها ؟

فأما طعن هؤلاء المستجدين اليوم وتندرهم واستخفافهم فأعجب شيء ، لأنك إذا سمعتهم عرفت دون جهد أنهم يأخذون تلك المآخذ الواضحة العجيبة . فاللغة العربية وآدابها تمثل في مخيلاتهم جانب العبث واللهو من الحياة التي تحياها الأمة ، أو التي يحسبون ان الأمة تحياها : فهي ألفاظ مترادفة لا طائل وراءها . فلفظة السيف مثلاً كان يجب ان تغني أهل هذه اللغة عن الثلاثين لفظة أو ألف اللفظة التي ذكرت فيه . ولفظة الأسد كان يجب ان تغني عما ذكر فيه من نحو خمسين ومائتين أو الف ، وكذا لفظة الحية والداهية والعسل والخمر وغيرها .

ومثله المشترك اللفظي الذي يستعمل مثل لفظة العين والعم والنوى والأرض ، وكذب ووجد ووقف ، وما تخرج إليه في الاستعمال من المعاني .

وكذلك التضاد من مثل الألفاظ التالية واختلاف دلالتها في العبارة : السدفة والصريم والجون والجلل والتلاع والرهوة (المزهر ١/ ٣٧٠، ٣٨٧ وتاريخ آداب العرب ١/ ١٨٩) .

وهي عندهم صيغ ومبان كثيرة كان يجب أن يغني بعضها عن بعض من مثل صيغ

مادة : رغوة وعلو وباب فِعْل وفَعَل وما يحتمل من اختلاف ، وباب فِعال وفَعال (إصلاح المنطق ٩٨ ، والخصائص ١/٣٧٣) .

وكذا تراكيب وتعابير مختلفة النظم متفقة الوجه والمعنى ، ولا موجب لازدواج مثل التعابير : أهديت وهديت وشكرته وشكرله واشتاقه واشتاق إليه وكناه أبا فلان وبأبي فلان (إصلاح المنطق ٢٧٥ ، وأدب الكاتب ٤١٩) .

وآداب هذه اللغة عندهم ذات معان تقليدية مكرورة ، فليست قصيدة أحمد شوقي في «غاب بولون» (ديوانه ٢ ٢٧) إلا مثل وقفة امرىء القيس الطللية في معلقته . وليس قول نازك الملائكة في الليل وظلمته وهمومه (ديوانها عاشقة الليل ٧) إلا مثل قول النابغة الذبياني في قصيدته البائية في المعنى نفسه (ديوانه ٥٤) .

فهذا كله مكرور الصور ، متفق الأثر ، منقطع الصلة بالحياة ، عقيم الجدوى لمن اشتغل فيه .

وأما العلم فيملأ مخيلاتهم أو رؤوسهم لأنه يمثل جانب الجد والعمل من حياة الأمة ، أو يمثل العطاء والنفع . وهذا المعنى هو أخطر ما في فهم هؤلاء الناس . وذلك لأن النتائج التي علقوا عليها هذه المقارنة عجيبة ، وهي أنها نتائج لا تتجاوز أقرب المنافع وأعجل العطاء . وهي توشك ألاّ تفارق محسوساتهم العاجلة ، التي تحجب أنظارهم عن أي شيء إلاّ ما يرونه ، وتعزلهم عن أي شيء يبلغونه أو يتصلون به إلاّ ما يامسونه ، ويحول دون أي أسلوب يأخذون به في هذه الحياة إلاّ أسلوب المنفعة العاجلة .

وإذا سألنا عن أولئك أصحاب هذه النظرة إلى اللغة وآدابها ، نقداً وتقويماً ، وصلتهم بهؤلاء الذين تقدم ذكرهم وشأن دعواتهم التي دعوا إليها ، وهل يمكن ان يؤلف بينهم فكر أو اتجاه ؟ أم ان دعوات هؤلاء هيأت لأولئك في نظرتهم إلى اللغة وآدابها وتقويمهم لها ؟ أم كيف تجد التعليل لهذا كله ؟ كان الجواب على النحو التالي :

فليس بين الفريقين من صلة وثيقة ، لكن بذور بعض دعوات هؤلاء من مستشرقين ومؤيدين لهم ومجددين هيأت لأولئك فكرة وأسلوباً ، ولا سيما الجرأة والحرية الخارقتان ، اللتان لا يمكن ان تبقيا على شيء تليد ولا أن تأتيا بجديد ذي بال . وهو ما يكشف مغزاه وبعد مرماه قول المرحوم عباس محمود العقاد : «لكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل

شيء يعنينا وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة» (أشتات مجتمعات ١٢٧) .

غير ان الواجب في تقويم هذا الموقف الجديد يدعو إلى ذكر العلل والأسباب في ذلك، كما يدعو إلى الكلام على الصلة بين العلم والأدب من حيث اللغة وعلومها ، وأثر الأدب في ذلك .

فأما تقويم الموقف الجديد فإنه يتمثل في عدة ظواهر لا ريب تعلل وتفسر نظرة هؤلاء الذين يمثلون في أغلبهم أبناء هذه الأمة ، الى اللغة وآدابها ، وهي على ترتيب ذكرها :

(١) دعوات نفر من المستشرقين ومؤيديهم والمقلدين المتطرفة منها الظاهرة والباطنة ، وما أعانت عليه من استهانة هؤلاء حتى جرّأتهم على كل شيء بحق وبغير حق .

(٢) انحراف اكثر مناهج التعليم في أساليب تنفيذها تساهلاً وتهاوناً ، حتى اتسعت الهوة بين مضامينها في كل مادة وطرائق تبليغها ، مما تأكد معه ان الفرصة من تلك المناهج تنفيذاً هو مضمونها دون أسلوب التنفيذ ، أو العناية بذلك الأسلوب ، فامتُهنت اللغة وعلومها ، وأُهملت كل أسباب العناية بها ، وكل جهد مبذول في سبيلها ، فلا خطابة ولا محاضرة ولا شعر ولا احتفال ولا ندوة ولا التفات إلى ذوي الملكات والاستعداد . وهو خلاف ما كان حتى عهد الاستعمار ، إذ لم يكن المجاز بالقانون يتخرّج من غير أن يتقن المرافعة باللغة الفصحى وبأسلوب مشرق . وكان عليه أن يتقن ما رسمته مناهج اختصاصه مما له صلة بالعربية وعلومها وآدابها .

(٣) انقطاع جهد الأمة عن المشاركة في الاختراع والصناعة ، واتكالها في ذلك على غيرها من الأمم استيراداً وانتفاعاً ، وبُعدها عن ميادين العلم وتطبيقاته .

(٤) اختلاط مفاهيم المجتمع واضطراب القيم فيه ، وتحوّل شديد في الحياة العامة ، وغلبة النفع المادي على كل شيء حتى طغى ذلك على مقدسات الأمة معتقداً وتراثاً .

(٥) توجس الأمة من عدوٍ امتلك أسباب الصناعة والاختراع وفنوناً من الطاقة على اختلاف ألوانها ، وضروباً من الوسائل العلمية ، وجيلاً أو جيلين من المتعلمين الذين يمكن أن يؤثروا ويوجّهوا .

(٦) ذهول الأمة لمنجزات العلم المستجدة المتطورة ، وشعورها بالحرج من حاضرها

المهدر ، وخشيتها من مستقبلها الذي يجب عليها ان تحققه بمضاعفة جهد ، ولا يتمثل لها إلاّ في العلم وحقائقه دون أي شيء آخر .

(٧) انصراف أغلب الناشئة إلى أسباب الاختصاص بالعلوم تستحثهم رغبة النفع العاجل والكسب المادي . وفي مخيلتهم صور قاتمة ساخرة للغة والأدب ، ولديهم اعتقاد بتفاهتهما وفقر جدواهما ، ويؤكد ذلك كله رأي عام عند ذويهم بل مدرسيهم ومعلميهم أيضـــاً .

وأما الكلام على صلة العلم باللغة والأدب فذلك ما يمكن أن يكشف عن زيف نظرة هؤلاء إلى اللغة وآدابها ، وبطلان نتائجهم ، وخلل تقويمهم ، ويؤكد حاجة العلم إلى اللغة وعلومها وآدابها تلك الحاجة الأصيلة ، التي تيسّر له أن يبلغ طالبيه ، وأن ينقل في عبارة وافية دقيقة . ولن يتحقق ذلك إلا باللغة وآدابها ، وهو ما يمكن أن نتبينه فيما يلي :

إن استهجانهم لتعدد اللفظ للمعنى الواحد مثل : ليث وأسد وغضنفر ، وثعبان وأفعوان وحيّة ، وما تمثله ظاهرة الترادف فإن مراجعته في شواهده ينتهي بنا إلى ان ألفاظه إنما لاحظ واضعوها في مسمياتها أو ما تقع عليه اسماً أو صفة خصائص متفاوتة ، فكانت على ذلك متقاربة متواشجة ، ولم تكن متماثلة ولا متطابقة مثل ما بين ليث وأسد أن من معاني أولهما القوة والشدة ومن معاني ثانيهما الغضب والشبع والاجتراء والإغراء والإفساد . ومثل ما بين ثعبان الذي من معانيه السيلان والتدفق والطول والضخامة والذكورة ، وحية الذي من معانيه الحياة والنشاط وطول العيش ، وفي هذا كله فرق ظاهر لا خلاف فيه .

وكذلك إنكارهم للأضداد وهو اتفاق اللفظ لمعنيين متناقضين مثل : السدفة للضوء والظلام ، والصريم لليل والنهار ، والجلل للصغير والعظيم ، والرجاء للخوف والرجاء . فإن أمر ذلك معلوم لدى أهل اللغة وعلمائها في نشأة ظاهرته ، وعدد ألفاظه ، وأسلوب استعماله ، وهو ما لا يخفى معه وجه لفظه . وتؤكده قلة ألفاظه ، وندرة ميل أرباب القلم إليه.

وكذلك تعجبهم من اتفاق اللفظين لمعنيين فأكثر ، وهو ما عرف بالمشترك اللفظي ، فذلك ضرب من المجاز وسبب من أسباب ازدياد اللغة وتكاثرها . وألفاظه المشتهرة لا تجاوز العشرة ، وهو ظاهر الوجه واضح المراد لانكشافه في العبارة .

وهذا كله من تباين المفردات وائتلافها من حيث معناها إنما يرجع إلى طبيعة واضعيها الذين «كانت لهم المفردات أشياء كأنها مظاهر الطبيعة المتسلطة عليهم بمعانيها المتناقضة

وصفاتها المتباينة لبلوغها الغاية في مألوفهم من اللذة والألم والمنفعة والمضرة ، وهذه يراها كل عربي ويحدّث عنها ويصفها على ما يجده في نفسه من أثرها ، وعلى ما يراه من صفاتها المختلفة ، فلا جرم اختلفت الألفاظ الموضوعة لها بحسب ذلك (تاريخ آداب العرب ١/١٩١).

ولا شك ان العلم أحوج ما يكون إلى هذه الدقة التي يدركها الشعور وتفوت الحس ، لأنها في أصل نشأتها الأولى غير معلومة يقيناً ، لكنها كانت ضرورية للمعرفة . وهي في تفسير العلم رموز جبرية . ويمكن أن يفسر أمر الظواهر المتقدمة ، ولا سيما الترادف ، من حيث الوصف بالألفاظ ومدى قدرتها على شمول الأشياء والأحوال ، قول المرحوم الدكتور محمد كامل حسين : «كل طفل يعرف الفنجان حين يراه على اختلاف الفناجين في أشكالها ومادتها . ولو أردنا أن نجد القاسم المشترك الأعظم بين صفات الفناجين التي تسوغ تسمية شيء ما فنجاناً لعجزنا عن ذلك . هذه الأسماء رموز جبرية يبدأ منها علمنا بالأشياء . ولولاها لاستحال علينا البدء في العلم بالأشياء إذا جهلنا كنهها» (متنوعات٢/١٢٣).

وفي كل حال فإن مجموع ألفاظ الظواهر المتقدمة لا حساب لها في مفردات اللغة لقلتها وانكشاف وجهها إفراداً واستعمالاً . وحاجة العلم إلى اللغة أكثر من حاجتها إليه ، فهي تمدّه وهو لا يملك أن يستغني عنها حتى لو استغنى عنها بالرمز والإشارة ، فإن في الرمز والإشارة بعض جذورها . وما الرمز والإشارة إلاّ ظل لمعنى قائم بالنفس اختصر ألفاظها . وأما المأخذ على مفردات اللغة فليس لعيب فيها وإنما العيب في مستعملها إذا كان جاهلاً بها وجه استعمالها وغافلاً عن كثرة دلالتها وسعة تصرفها ودقة أدائها .

وتظهر هذه الدقة أيضاً في استعمال كل لفظ بمعنى لشيء من الاختلاف فيه ، مثل ذلك قولهم : أشجاه يشجيه ، إذا أغصه . وشجاه يشجوه شجواً ، إذا حزنه . وقولهم : أشهرنا في هذا الموضوع : أقمنا فيه شهراً ، وقد شهرنا فلاناً في الناس نشهره شهرة . وقد شهرنا سيوفنا نشهرها شهرا ، وقولهم : أسفر لونه إذا أشرق . وقد أسفر الصبح إذا ضاء . وقد سفرت البيت إذا كنسته . وقد سفرت الريح السحاب إذا قشعته . وقد سفرت بين القوم أسفر سفارة إذا سعيت بينهم بالصلح .

والملاحظ أنه خلاف دقيق للأداء عن معان متباينة ، يكشف عنه الاستعمال أو تكشف عنه الصيغة أو بعض المصوتات كبراها وصغراها ، وهو غاية الدقة في الفرق لم تندّ عنه كل حال ذكرها علماء اللغة المحدثون من حال نفسية مثل : رجل ضُحَكة بمعنى كثير

الضحك ، وضُحْكة بمعنى مضحوك عليه ومنه . وهزأة بمعنى يهزأ من الناس ، وهُزْأة بمعنى مستهزأ منه . وعُدْلة بمعنى كثير العدل ، وعُدْلة بمعنى معدول كثيراً . وحُمْدة بمعنى كثير الحمد . وحُمْدة بمعنى محمود . وغير ذلك من صيغ الأسماء والأفعال .

ومن حال تتصل بالتصرف والتبدل ، وتقلب الأمور مثل : أغبر فلان في طلب الحاجة بمعنى جدّ في طلبها ، وأغبر بمعنى إثارته الغبار . وغبّر بقي ، والغابر الباقي . وأهزل الناس إذا أصابت مواشيهم سنة فزلت . وهزلوا دوابهم إذا عملوا بها ما سبب هزالها (إصلاح المنطق ٢٥٣) .

وتظهر دقة اللغة في نظمها وتركيب عبارتها مثل قولهم فيمن كان شديد الظهر : رجل مظهّر . وإذا اشتكى ظهره : رجل ظهر . وإذا كان شديد الصدر : مُصدّر . وإذا اشتكى صدره : مصدور . ومثل قولهم : رويت ماء ولبناً ومن ماء ولبن . ورحت القوم ورحت إليهم . وتعرضت معروفهم وتعرضت لمعروفهم . وثويت البصرة وثويت بها . وجاورت بني فلان ، وجاورت فيهم (أدب الكاتب ٤٢٠) .

ومثله قولهم : رغبت عن الشيء ، إذا زهدت فيه ، ورغبت في الشيء إذا حرصت عليه . والبيت التالي يحتمل المعنيين .

ويرغب أن يبني المعالي خالد ويرغب أن يرضى صنيع الألائم

فإذا قدّر حرف الجر «في» بعد الفعل الأول « يرغب » وحرف الجر «عن» بعد الفعل الثاني كان المعنى مدحاً ، وإن عكس التقدير كان هجاء .

ومنه قولهم في عودة الضمير : إن زيداً قائم وعمرو ، فرفع عمرو على موضع زيد مع «إن» ، ولو عطفوا عمراً على زيد لوجب النصب ، وتغير المعنى ووجب تغيير نظام العبارة (الإنصاف ٥٤) .

واللغة العربية خصائص أخرى كثيرة تميزها من كل لغة سواء في تباين مخارج أصواتها واختلاف صفاتها ، وفي وجوه أدائها حقيقة ومجازاً . ولعل الأمثلة التي تقدمت أغنت في الإيضاح عن فكرة الموضوع من تقويم اللغة وآدابها ، وأن العلم ومعارفه المختلفة ، وما ينتهي من دقة العلاقة ووضوح النتائج محتاج إلى مفردات تدل على مصطلحاته ، ومعان تفي بعلاقاته ، وعبارة تؤدي عنه فكراً : نظريات وآراء ومضموناً ، ونتائج : قوانين

واصطلاحات . وهذا لا يتسنى له إلا بلغة تفي بذلك كله .

وقد أدت اللغة العربية وعلومها عن حاجة المعارف والعلوم بمختلف ألوانها ونقلت تراث الأمم التي ترجم العرب كثيراً منه ، كما وسعت الجديد منها في عصورهم المزدهرة ، وتتسع اليوم لها دون تقصير ، كما يدل على ذلك غير جهد فذ في علوم الطب والكيمياء والفيزياء وفنونها . وفي ذلك أوضح جواب لكل متسائل عن قدرة اللغة وآدابها في سد حاجة العلم وفنونه . وخير مقنع لكل متشكك في تلك القدرة العجيبة .

اللاذقية ٦/من المحرم/١٣٩٧
١٩٧٦/١٢/٢٧

المصادر والمراجع

أدب الكاتب	عبدالله بن مسلم بن قتيبة	الطبعة الثالثة ١٩٥٨
أشتات مجتمعات	عباس محمود العقاد	دار المعارف بمصر ١٩٦٣
إصلاح المنطق	يعقوب بن يوسف السكيت	دار المعارف بمصر ١٩٥٦
الإنصاف في التنبيه...	عبدالله بن محمد ابن السيد البطليوسي	دار الفكر ١٩٧٤
تاريخ آداب العرب	مصطفى صادق الرافعي	الطبعة الثانية ١٩٤٠
الخصائص	أبو الفتح ابن جني	دارالهدى، الطبعة الثانية (المصورة)
ديوان الشوقيات	أحمد شوقي	مطبعة الاستقامة بمصر١٩٥٨
ديوان عاشقة الليل	نازك الملائكة	الطبعة الثانية ١٩٦٠
ديوان النابغة الذبياني		دار الفكر ١٩٦٨
متنوعـــات	محمد كامل حسين	النهضة المصرية الطبعة الثانية
المزهـــر	جلال الدين السيوطي	دار إحياء الكتب العربية